

مادة مفاهيم ونصوص فلسفية

S1

ذ.محمد مزيان

كلية الآداب والعلوم الإنسانية (جامعة ابن طفيل/القيطيرة)

مسلك الفلسفة و ع.ج

الموسم الجامعي: 2020-2021

الحصّة الرابعة

تكشف هذه الأطروحة عن الأبعاد الأساسية للتجريبية بل عن شروط إمكانها الخفية، يتعلق الأمر أساساً بمفهوم التجربة. إن التجربة غير ممكنة فعلاً إلا على خلفية مفهوم الزمن بوصفه تتابعاً، إذ دون ذلك لن يكون في وسعها أن تتشكل ضمن الخيال باعتبارها تكراراً لحالات متشابهة؛ فهذا التكرار هو ما تعمل مبادئ الفكر-التي ليست مما هو فطري في شيء، بل تتحين وتتحقق بحسب كل مناسبة وظرف-تعمل على تثبيتها في صيغ عامة، ولعل ذلك هو عمل العقل. ولأن التجربة في ماهيتها قائمة على أساس الزمن بوصفه تتابعاً، فليس في وسع الخيال إلا أن يكون تعوداً، مثلما ليس في مقدور الفاهمة إلا أن تكون حارساً للتجربة حيث تحقق في كل مرة تطابق العادة مع التجربة. فدون ذلك تضيع هوية الذات في متاهات الإعتقاد، لهذا قال "دولوز": "و فقط بمقدار ما يأخذ الفهم على عاتقه بعملية جديدة، فعل الإعتقاد عن طريق إبقائه هو بالذات ومبدأه ضمن حدود التجربة الماضية، سوف يتم الإعتراض بالشروط المشروعة للإعتقاد بحد ذاته وتطبيقها..." (42). هكذا يشكل الزمن باعتباره تتابعاً الأصل البعيد لضمان هوية الذات من حيث إنها تطابق وتماه يحفظها من الإعتقاد الذي ليس غير انفراط عقد الذات بوصفها جوهرًا.

ومع ذلك يقول "دولوز": "إن فلسفة هيوم هي نقد جاد للتمثل... [فقد]... جعلت العقلانية من التمثل معياراً، إذ وضعت الفكرة في العقل، وضعت في الفكرة ما لا يترك نفسه يتكوّن في المعنى الأول للتجربة..." (43). ويضيف موضحاً أكثر: "تتكون الذاتية التجريبية في الفكر تحت تأثير المبادئ التي تؤثر فيه، ليس للفكر سمات ذات مسبقاً" (44). يفيد التمثل إذن في النزعة العقلانية بذات-جوهر (أي أن الذات قائمة بذاتها لا تحتاج إلى غيرها)، هذا في حين تكشف التجريبية عن الذات بوصفها سيرورة حيث لا شيء هو هنا أصلاً. ولعل الفارق بين هذا وذاك هو المكانة التي تحظى بها الطبيعة في هذا التصور أو ذاك. ففي حين تملي الذات باعتبارها تمثلاً أطرها العقلية على الكائن كي يستجيب لمقتضيات مبادئها الخالصة (أي عقلية غير مستمدة من التجربة)، تذهب التجريبية المذهب المعاكس حيث تهدف تبين كيفية تشكل الذات ضمن ما هو معطى، أي التجربة. فالذات هنا تستمد مشروعيتها من التجربة، إنها في البداية لا شيء ثم تصبح ذاتاً بفعل التجربة؛ لذلك انتهى "دولوز" وهو بشأن التمييز بين مهمة الفكر عند "كنط" و"هيوم" إلى الإقرار التالي: "يكون النقد تجريبياً حين يتساءل المرء... بصدد الذات: كيف تتشكل فيما هو المعطى؟" (45). لم يعمل "دولوز" إلا على إعادة صياغة ما هو معطى لدى الفيلسوفين معاً دون أن يكون القصد من عمله ذلك المفاضلة بينهما، بل إن تأويلاته بشأن الفيلسوفين انتهت إلى تبين التناهي بوصفه مداراً للأطروحتين معاً؛ فهو إذا كان قد أجمل بشأن عمل "كنط" قائلاً: "تكمّن أصالة نظرية الملكات عند "كنط" (القدرات العقلية: العقل، الخيال، الذاكرة...)، في أن صورتها الأسمى لم تنف عنهم أبداً تناهيهم الإنساني، مثلما أنها لم تلغ اختلافهم في الطبيعة" (46). إذا كان هذا بصدد "كنط" فإن "دولوز" انتهى بشأن أطروحة "هيوم" إلى القول: "تتحدد الذاتية كمعلول، إنها انطباع، انعكاس" (47). ففي كلتا الحالتين ليست الذات مما هو معطى أي من الذات-الجوهر في شيء.

غير أنه في اللحظة التي كانت تنطلق فيها تأويلات "دولوز" من الفرضية التالية: التناهي معطى أنطولوجي (أي أن محدودية الكائنات تنتمي إلى طبيعتها) هو هنا قبل نية الفيلسوف وقصده قبل الكتابة وتشكل المعنى، أي التناهي بما هو اختراق للعمل يتسلل حيث تفلت زمام الأمور من مآرب الفيلسوف؛ في هذه اللحظة ينطلق "الآن رينو" من فرضية مختلفة تفحص مدى استجابة الفيلسوف لنداء التناهي حيث يحل بوصفه دليل قوة وعنفوان. وهو بهذا لم ير أن عمل "هيوم" ينطبق عليه ما ينطبق على عمل "كنط".

المعروف أن "رينو" يقر بأن جديد "هيوم" هو أن الطبيعة الإنسانية عنده ليست ماهية وبهذا يعترف بأن "هيوم" لم يشارك الذاتية في القول بالذات- الجوهري؛ هذا مثلما أنه صحيح أن "رينو" أكد الأمر التالي: "بإقرار التجريبية أن الطبيعة الإنسانية لا يكون بالمقدور معرفتها إلا انطلاقاً من تجربة أولى... تكون بذلك قد وضعت، بشكل مباشر وصارم، فلسفات الذات [فلسفات تمجيد الذات] على المحك" (48). إلا أن ذلك لم يعف أطروحة "هيوم" من الإندراج ضمن فلسفة الذاتية وذلك منذ اللحظة التي تتحدد من خلالها الأنا باعتبارها تتابع انطباعات حيث "يعمل الانطباع إذن في فكر هيوم كذرة، ذرة فيزيائية. وللذرة فهو يشكل وحدة مستقلة مكثفة بذاتها مثلما أنها تامة وكاملة" (49). ثم يضيف "رينو" موضحاً: "إن الوحدة والانغلاق على الذات يسجلان الإستقلالية المكونة للفردانية المونادية" (50).

يعمل الانطباع إذن بوصفه بؤرة تطابق وتماه، فالانطباع هو ما يعطانا بدءاً من خلال الأنا لذلك فهو يطبع بميسمه المحايث ذاك كلا من الخيال والفاهمة لتبدو سيرورة تشكل الذات باعتبارها سيرورة مطابقة. لهذا لم يتوان "رينو" في وضع أطروحة "هيوم" ضمن الأفق العام للذاتية كما ارتسمت ملامحها منذ "ديكارت"؛ إذ "من المؤكد أن الأمر مثلما مع ديكارت، فقد بحث هيوم عن تجربة أولى تكون بمثابة مؤسس لكل يقين، وقد وجدها على خلاف ديكارت ليس ضمن البداهة الذاتية للذات بل ضمن التطابق المطلق للانطباع" (51). لقد صمت "دولوز" عن حدود مفهوم الانطباع عند "هيوم" حيث لم يعمد أبداً إلى تصنيف عمل الانطباع، اللهم أنه وسمه بأنه فطري بما يفيد أنه قابلية تلقي المعطى الخارجي أو الداخلي، دون أن تكون هذه القابلية ذات مضمون خالص يخضع الكائن لمقتضياته. لذلك نجد "دولوز" يقابل بين الانطباع (ما تنطبع به الذات تحت تأثير معطيات العالم الخارجي) والتمثل (تصور عقلي)، فيجعل من التجريبية النقدية عدواً لذوذاً لفلسفة التمثل. هذا في حين يرادف "رينو" بين التمثل والانطباع ليديرج أخيراً فلسفة "هيوم" ضمن أفق المونادولوجيا (علم الموناد، علم الكائنات)، فما يحفز تأويلات "رينو" هي تأكيد البينية التي تباعد الذات عن ذاتها لتمكّن من تشكيل ذات بمعزل عن فلسفة الذات المونادية (أي المنغلقة على نفسها)؛ هاته التي انتهى بشأنها إلى أنه في

خضمها" لايقام الحوار إلا بطريقة غير مباشرة ... بل عبر بنية قبلية [بنية عقلية مغلقة] تتقدم وتخرق كل قرار واختيار إنساني، حوار دون بينذاتية... " (52) .

يؤول تحديد الأنا بوصفها انطبعا في عرف "رينو" إلى وضع الذات في أفق التصور المونادي للذات، هذا وإن حادت التجريبية عن فرضية الطبيعة الإنسانية باعتبارها ماهية. لعل مرجع ذلك هو ما يجده الباحث في إشكالية "هيوم" كما عمد "رينو" إلى صياغتها وذلك بالقياس إلى إشكالية الفلسفة النقدية؛ فها هو يقول: "وعلى خلاف كمنظ لم يسأل هيوم أبدا كيف يمكن أن تكون هناك موضوعات بالنسبة لنا" (53). نجد هنا عرضا بالسلب لإشكالية "هيوم"، يقابله تماما عرضا آخر بالإيجاب يحدد من خلاله "دولوز" عناصر إشكالية "هيوم" وذلك على النحو التالي: "تحديد شروط ممارسة شرعية بالنسبة للتجربة، ونقد الممارسة غير المشروعة خارج التجربة" (54). وسواء تعلق الأمر بتحديد الإشكالية الهيومية (نسبة إلى هيوم) سلبا أو إيجابا فإن المشترك الملاحظ، هو أن ماتعدّه التجريبية مبدأها الأساس ظل طبي النسيان، أي التجربة. فقد تم إهمال التجربة- الشيء في شئنيته بقدر ما أطنبت التجريبية في تمجيد التجربة. لقد كانت أدواتها الفعلية في نسيان التجربة هو إفراطها في الحديث عن التجربة كمبدأ، كقيمة.

هكذا ظلت التجربة-الشيء خارج مدار التفكير، فكانت النتيجة أن تشكل الإنطباع بوصفه ما يحدّد معنى الشيء كما يظهر ذلك عبر سيرورة تشكل الذات. لقد انطبعت هذه السيرورة بالخاصية الإستقطابية للإنطباع (المقصود مركزية الإنطباع)، إذ يرث الخيال ما يعطاه ضمن الإنطباع لينضبط أخيرا عمل الخيال لمبادئ الطبيعة البشرية (التشابه- التجاور- السببية) التي تشكل قواعد عامة لتحديد وجود الكائن ومثوله. إن هذه المبادئ تستأنف عملية المطابقة التي ترثها وهي جنينية ضمن عمل الإنطباع فتصير الأنا ذاتا حيث تتحين وتتحقق في كل مرة بوصفها تمثلا.

الهوامش

- (42)- نفسه، ص99.
- (43)- نفسه، ص24.
- (44)- نفسه، ص21.
- (45)- نفسه، ص134.
- (46)- Deleuze (Gilles), La philosophie critique de Kant, p98, puf, 1977.
- (47)- دولوز (جيل)، التجريبية والذاتية، ص17، ت. أسامة الحاج، المؤسسة الجامعية، 1999.
- (48)- Renaut (Alain), L'ère de l'individu, p181, Gallimard, 1989.
- (49)- ibid, p181.
- (50)- ibid, p183.
- (51)- ibid, p184.

52)- ibid,p187.

53)- ibid,p180.

(54)- دولوز (جيل)، التجربة والذاتية، ص111، ت. أسامة الحاج، المؤسسة الجامعية، 1999.